مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 13 عدد: 2، يونيو 2024
ص: 124 - 142 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

القسم وأثره الدلالي في القرآن الكريم

The Oath and its Semantic Impact in the Holy Qur'an

ط د. زينب عقون [1] / أ د. سعيد خنيش [2] *
Zineb aggoun [1] / said kheniche [2]
مخبر التأويل وتحليل الخطاب
جامعة عبد الرحمان ميرة – بجاية (الجزائر)
University of abderrahmane mira – Bejaia (Algeria).
zineb.aggoun@univ-bejaia.dz [1] / Said.kheniche@univ-bejaia.dz [2]

تاريخ الإرسال: 2024/03/21	تاريخ القبول: 2024/04/26	تاريخ النشر: 2024/06/02

ملخص البحث

نسعى في هذا البحث إلى إبراز الأثر الدلالي لأسلوب القسم في القرآن الكريم، هذا الأسلوب الذي يعدّ من أهمّ طرق توكيد الكلام وتحقيق معانيه ومقاصده، إذ يهدف المتكلم من خلاله للوصول إلى إثبات كلامه لدى السامع وإزالة الشك عنه، فأسلوب القسم من الأساليب اللغوية التوكيدية المستعملة عند العرب منذ القدم، لما له من أثر في تمكين الشيء في النفس من جهة، ومن جهة أخرى لقداسته وإيجازه، وقد كان حضوره في القرآن الكريم واسعا وبكل أنواعه، ولأغراض متنوعة أهمها التوكيد، وهذا ما تبين لنا من خلال تحليل نماذج تطبيقية لآيات كريمات وفق المنهج الوصفي التحليلي.

وخلصنا من البحث إلى أنّ أسلوب القسم من أهمّ وسائل التوكيد في القرآن الكريم لما فيه من قوة التأثير على العقل ولما له من طاقة حجاجية لإثبات المعاني ودفع الشك عنها.

الكلمات المفتاح: قرآن كريم، قسم، أثر دلالي، حجاج، تداولية.

Abstract :

This research aims to highlight the semantic impact of the oath style in the Holy Qur'an. Oath is one of the most important ways to confirm speech and achieve its meanings and objectives, in a way through which the speaker aims to assert his words to the listener and let him undutiful thereto. The oath is one of the affirmative linguistic styles that have been widely used by Arabs since ancient times thanks to its effect in asserting things in mind, on the one

* ط.د/ زينب عقون : zineb.aggoun@univ-bejaia.dz

hand, and for its holiness and brevity, on the other hand. It widely occurred in the Holy Quran in all kinds, and for various purposes, the most important of which is emphasis.

This was demonstrated by the analysis of applied models of cream verses according to the analytical descriptive approach.

We concluded from the research that the Section's method is one of the most important means of affirmation in the Holy Koran because of its power to influence the mind and its argumentative energy to prove meaning and to defend doubt about it.

Keywords: the Holy Qur'an, Oath, Semantic Impact, Argumentation, pragmatics.

المقدّمة:

تمتاز اللغة العربية بالدقّة في التعبير، وتنوع أساليبها تنوعا تمليه الأغراض الكلامية المختلفة التي يسعى المخاطب إلى تبليغها للسامع، وأسلوب القسم أحد مظاهر الثراء والدقة فيها، فهو من مؤكدات الكلام التي تعمل على تمكين الشيء في النفس وإقراره في الذهن، والقرآن الكريم عند نزوله كان قاصدا البشرية جمعاء، غير أنّ المواقف تباينت وتعددت حوله، وذلك أمر لا يخفى على المولى جلّ في علاه، فجعل كلامه ثريا بأساليب تتلاءم مع المؤمن وأخرى مع المتردد والمشكك وأخرى مع المنكر، وأسلوب القسم أهمّها، إذ تُثبت به الحجّة ويتأكد من خلاله الخبر.

لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب، ومن عادة أهل هذه اللغة استعمال أسلوب القسم لإثبات كلامهم وتوكيده وإزالة الشك عنه، فلم يكن القرآن بمنأى عن ذلك، يقول السيوطي(ت:911ه) " القسم في كلام الله يزيل الشكوك ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة ويؤكد الأخبار، ويقرّ الحكم في أكمل صورة " [1]

فالقسم أحد أهمّ أساليب توكيد الكلام وتقريره، ويكثر استعماله في الكلام سواءً أكان ذلك في كلام البشر أم في كلام الله جلّ جلاله ، لإيجازه ودقته، وقوة تأثيره على النفس والعقل معا، ومن هذا المنطلق آثرنا أن يكون موضوع دراستنا هذه، انطلاقا من الإشكالية المتمثلة في ما يلي:

ما الأثر الدلالي لأسلوب القسم في القرآن الكريم؟ ما هي أهمّ أغراضه؟ وأين تتجلى الوظائف الحجاجية والتداولية لهذا الأسلوب في النص القرآني؟

تتمثل أهمّية هذا البحث في بيان مدى مساهمة أسلوب القسم في الكشف عن دلالات القرآن الكريم، ودوره في تحقيق أغراض بلاغية متنوعة بتنوع مقامات الخطاب وسياقاته.

المسعى من البحث هو:

- إبراز الأثر الدلالي لأسلوب القسم في القرآن الكريم.
- بيان أغراضه البلاغية في هذا النص.
- التقصّي عن بعديه الحجاجي والتداولي في القرآن الكريم.

وقد اعتمدنا في هذا البحث على المنهج الوصفي، مع تحليل وبيان الأثر الدلالي لأسلوب القسم في النص القرآني، وإبراز بعديه الحجاجي والتداولي فيه، من خلال الوقوف على آيات كريمات توضح ذلك.

إنّ موضوع القسم في القرآن الكريم قد شهد اهتماما واسعا عند علماء اللغة والدارسين قديما وحديثا، قصد بيان وظائفه وأثره الدلالي في هذا النص- القرآن الكريم-، فقد عرض له النحويون والبلاغيون قديما وحديثا، ولعل أهمّهم: سيبويه(ت180ه)، الجاحظ(ت255ه)، العسكري(ت395ه)، ابن الأثير(ت630ه)، الباقلاني(ت403ه)، وغيرهم، ومن المؤلفات القديمة فيه نذكر:

- (التبيان في أقسام القرآن) للإمام ابن الجوزيه(ت751ه).
- (إمعان في أقسام القرآن) للمعلم عبد الحميد الفراهي(ت170ه).

ومن المؤلفات الحديثة فيه:

- (أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط في رحاب القرآن الكريم) للدكتور علي أبو القاسم عون.
- (القسم في القرآن الكريم) لحسين النصار.

ويشتمل بحثُنا هذا على مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، على النحو التالي:

مقدّمة: تضمّنت إشكالية البحث، أهمّيته، منهجه، الدراسات السابقة، وخطته.

المبحث الأول: تضمن مفهوم القسم، أركانه، وأنواعه.

المبحث الثاني: اشتمل على أغراض القسم في القرآن الكريم..

المبحث الثالث: البعد الحجاجي لأسلوب القسم في القرآن الكريم.

المبحث الرابع: الوظائف التداولية لأسلوب القسم في القرآن الكريم.

خاتمة: وفيها مجموعة من النتائج التي توصل إليها البحث.

1. مفهوم القسم، أركانه وأنواعه:

1.1. مفهوم القسم:

القسم في اللغة كلمة يعود أصلها إلى الجذر الثلاثي (ق س م) وتعني اليمين والحلف، وجاء في لسان العرب"القسم بالتحريك اليمين"، وأقسمتُ حلفتُ، وفي التنزيل:﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[النمل: 49] [2]، كما أوردها صاحب اللسان في مادة (ح ل ف) ويقول" الحِلف والحَلَفُ القسم، والحلف والقسم لغتان في القسم، فالحلف حلف أي أقسم والحِلف بكسر الحاء يعني العهد والميثاق، وتحالف القوم أي تعاهدوا فيما بينهم". [3]

كما يعني القسم اليمين على وزن (فعيل)، فقد ورد في الصحاح: " اليمين القسم والحلف (أيمن) وقيل إنّما سميت بذلك لأنّهم كانوا إذا تحالفوا ضرب كل امرئ منهم يمين صاحبه". [4]

وللتعريف اللغوي علاقة مباشرة بالتعريف الاصطلاحي، فالقسم اصطلاحا كما عرّفه ابن سيّده "يمين يقسم بها الحالف ليؤكد بها شيئا يخبر عنه من إيجاب أو حجة، وهو جملة يؤكد بها جملة أخرى، فالجملة المؤكدة هي المقسم عليه، والجملة المؤكدة هي القسم، والاسم الذي يدخل عليه حرف القسم هو المقسم به ". [5]

فأسلوب القسم نوع من أنواع البيان الذي ألفه العرب في كلامهم لغرض الاستشهاد والاستدلال به، لما له من تأثير على الفكر والوجدان، وهو أداة من أدوات توكيد الكلام وإثباته، وعدم إبقاء أي حجة عليه، وقد عرّفه ابن يعيش بقوله "هو جملة فعلية أو اسمية تؤكد بها جملة موجبة أو منفية ". [6]

وبذلك فقد أجمع اللغويون في تعريف أسلوب القسم بأنّه: جملة موجبة تؤكد بها جملة موجبة أو منفية، كما في قوله تعالى:﴿حمٓ والْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف: 1، 2 ، 3]،حيث ذهب الطبري(ت:310ه) في تفسير الآيات الكريمات إلى أنّ في مضمونها " قسم من الله تعالى بهذا الكتاب الذي أنزله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم-، لمن تدبره وفكر في عبره وعظاته، وهداه، ورشده، وأدلته على حقيقته". [7]

2.1. أركان القسم:

للقسم أربعة أركان هي: المقسم، المقسم به، المقسم عليه، حروف القسم.

1.2.1 المقسم: المقسم في القرآن الكريم هو الله عز وجلّ، لأن النص القرآني هو كلامه -جلّ في علاه- الموجّه إلى عباده لغرض التأثير فيهم بالتصديق و الإيمان، كونه هدي من الرحمان.

2.2.1 المقسم به: تنوع المقسم به في القرآن الكريم، فقد أقسم الله عزّ وجلّ بنفسه وصفاته، كما أقسم بمصنوعاته ومخلوقاته للدلالة على عظمته في خلقه، يقول صبحي عمر"ما أقسم عليه الرّب هو من آياته، فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس" [8] ولتنوع المقسم به في القرآن الكريم عدّة أغراض منها :[9]

- إثارة الرهبة و العظمة لجلالته وعلو شأنه.
- إثارة حب الاستطلاع والفضول العلمي، والبحث والتنقيب في عظمة الخالق من خلال خلقه.
- محاولة إدراك منافع الخالق كالشمس والقمر والنجوم وغيرها، مصداقا لقوله عز وجل﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران: 191].

وقد يأتي المقسم به مسبوقا بالنفي (لا) سواء اقترن بالفاء كما في قوله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾[المعارج: 40]، كما قد يأتي غير مقترن بالفاء كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ﴾[البلد: 1]، والغرض من دخول النفي على فعل القسم (لا أقسم) هو توكيد القسم، يقول السيوطي <<المقصود بذلك إعظام للمقسم به، كأنه يقول لا أعظمه بالقسم به وإنّما هو معظم بغير القسم >> [10]، وهذا النوع من القسم خاص بالنص القرآني دون غيره من النصوص.

2.1. 3. المقسم عليه أو جواب القسم: وهو الأمر المقصود تحقيقه والغالب فيه أن يكون مذكورا في الكلام، وقد يحذف في حالات نادرة إذا كان معلوما، والمقسم عليه في القرآن الكريم هو ما اقسم الله عزّ وجلّ عليه، ويكون إمّا جملة مثبتة أو منفية، ويختلف جواب القسم باختلاف نوعي القسم: الاستعطافي وغير الاستعطافي، ففي قوله جلّ في علاه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 3]، فالمقسم عليه هو عبارة ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾، أمّا في قوله جلّ جلاله:﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات: 23] فالمقسم عليه هو ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

2.1. 4. أحرف القسم: للقسم عدة حروف أهمّها: الياء، والواو، والتاء، وعملها الجر، ولا محل لها من الإعراب"، فأكثرها الواو ثم الياء يدخلان على مخلوق" [11] ، فالياء هي الأصل في حروف القسم، وتستعمل في الاستعطاف وتدخل على الظاهر والمضمر وثانيها الواو ولا تدخل إلا على مضمر، كما في قوله تعالى: ﴿ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾[يس:1، 2] ، وثالثها التاء فتختص بلفظ الجلالة، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[الأنبياء: 57] يقول الزمخشري" التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب " [12].

3.1. أنواع القسم :

ينقسم أسلوب القسم من حيث الظهور والإضمار إلى نوعين هما: القسم الصريح والقسم المضمر.

1.3.1 .القسم الصريح: وهو ما يستدل عليه بلفظ القسم، وفي القرآن الكريم أقسم الله تعالى بذاته وصفاته،كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾[مريم: 68]، كما أقسم عزّ وجلّ بمخلوقاته للدلالة على عظمته في خلقه، على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[الليل: 1 ، 2] ،﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾[الطور: 1 ، 2]، وكان موضوع القسم لغرض بيان حقائق يقينية لخلقه، أو إثبات وحدانيته سبحانه وتعالى وكذا تأكيد يوم البعث وبيان أحوال الناس وغيرها.

2.3.1. القسم المضمر: ويسمى بالقسم غير الصريح، وهو الذي يفهم من سياق الكلام ولا يعلم بمجرد سماعه، بل لابدّ له من قرينة، وهذا النوع وارد في القرآن الكريم، وقد تعرض إليه ابن سيّده في كتابه (المخصص) ضمن " باب ما عمل بعضه في بعض وفيه معنى القسم " وباب نوادر القسم " "وهي: جير، عوض، أحدك، حزم" [13]، ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى:﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ أَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 84 ، 85] فنابت كلمة (الحق) عن فعل القسم، وحذف حرف القسم، وجرى مجرى القسم.

كما ينقسم أسلوب القسم من حيث أغراضه إلى ثلاثة أنواع: القسم التقديسي، القسم التشريفي، والقسم الاستدلالي.

أ- القسم التقديسي: هو أن يقسم العبد بمعبوده، وهو عند المسلمين القسم بالله عزّ وجلّ تقديسا وتعظيما له، ويعدّ القسم الشرعي الذي أمر الله به عباده، لأنّه من يقسم بغير الله يعدّ آثما، وهو أقوى أنواع القسم وأكثرها تأثيرا على السامع، كما في قوله تعالى:﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ [النحل: 63]، حيث استدعى مقام الآية الكريمة ومضمونها الحلف بالمولى جلّ جلاله، فأراد التوكيد لنبيّه-عليه الصلاة والسلام- أنّه " قد بعث قبله رسلا لأقوامهم لكن الشيطان حسّن أعمالهم القبيحة حتى كذّبوا الرسل وردوا عليهم ما جاءوهم من البيّنات ".[14]

ب- القسم التشريفي: وهو ما كان لغرض تشريف المقسم به من غير الله تعالى، رغبة في تعزيزه وتكريمه، فيقال، ورأسك، وحياتك، وعمرك، غير أنّ ذلك لا يصل إلى درجة التقديس، كما في قوله جّل جلاّله: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الحجر: 72] إذ " أقسم الله تعالى بنبيه الكريم- صلى الله عليه وسلم - ليعرف الناس عظمته ومكانته عنده".[15]

ج- **القسم الاستدلالي:** وهو أكثر أنواع القسم ورودا واستعمالا، سواءً أتعلق الأمر بالكلام العادي، أم بكلام الله _جلّ في علاه_ الغرض من إيراده دفع الإنسان إلى اليقين والإيمان، ودفعه إلى تقديس الخالق وإزالة الشك عن ربوبيته، وقد تنوع من حيث المقسم به، بين الله جلّ وعز، وبين ما خلقه من مخلوقات دالة على عظمته من خلال هذا الخلق المعجز لغيره سبحانه وتعالى، إلاّ أنّ الهدف منه واحد وهو الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه، ففي قوله عزّ وجل:﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾[الذاريات: 1،2،3،4،5،6]، ذهب "الرازي" إلى أنّ الغرض من القسم في هذه الآية الكريمة هو التأكيد علي الوعد والجزاء، فمن استطاع على هذه الأمور العجيبة المقسم بها، يقدر على إعادة من أنشأه.[16]

2. أغراض القسم في القرآن الكريم:

تعددت أغراض القسم في القرآن الكريم بين التقديس والتعظيم والتشريف... وغيرها، غير أنّ الغرض الأساس منه توكيد الكلام وتقريره، وهذا اعتمادا على ما ورد في كتب النحو وكتب علوم القرآن، وتتمثل أهمّ هذه الأغراض في الآتي:

- **توكيد الخبر وتقريره:** فالتوكيد أهمّ غرض يساق من أجله القسم، لأنّ المسعى من استعمال هذا الأسلوب هو تمكين الخبر في النفس والإقناع به، ودفع الشك والإنكار عنه، وهذا ما ذهب إليه النحاة وأكدوه، منهم سيبويه (ت 120هـ) إذ يقول: " اعلم أنّ القسم توكيد لكلامك "[17]، وجاء ذلك واضحا في النص القرآني، حيث كان الغرض من استعماله في غالب الأحيان متعلقا بالتوكيد، وهكذا كان مستعملا عند العرب منذ القدم في لغتهم، إذ يقطعون كلامهم بالقسم، فجاء القرآن الكريم موظفا له - أسلوب القسم- للغرض نفسه، وخاصة إذا كان المقسم

عليه من الأمور الخفية أو الغيبية، فالقسم يؤكدها وثبت حقيقتها، يقول الزركشي (توفي 794ه) " القسم هو توكيد ما يقسم به من نفي أو إثبات وتوكيد الخبر لإزالة الشك عن المخاطب " [18]، فمثلا في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[يونس: 53]، ارتبط القسم في هذه الآية الكريمة بجواب على استفهام، لذلك جاء" الجواب مؤكدا بالقسم والتوكيد اللفظي وحرف الجواب (إي)، ولام الابتداء، وكلها مؤكدات، والمعنى أنّ الأمر فعلا واقع وأنتم مصابون به وغير مفلتين منه" [19]، وأيضا في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر: 92]، "حيث المقصود من القسم تأكيد الخبر، فليس الرسول-صلى الله عليه وسلم- ممّن يشكّ في صدق هذا الوعيد، ولكن التأكيد متسلط على ما في الخبر من تهديد" [20]، وبالتالي الغرض من استعمال أسلوب القسم في هذه الحالة إزالة الشكوك وإقامة الحجة، يقول عبد الجليل عبد الرحيم في كتابه" لغة القرآن الكريم " " القسم في كتاب الله يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقر الحكم في أكمل صورة ". [21]

- **تعظيم شأن الخالق جلّ في علاه:** يقول السيوطي " القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع، لأنّ ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل" [22]، فعظمة الله عزّ وجلّ تتجلى من خلال خلقه، وقد جاء القسم في القرآن الكريم بمخلوقات الله سبحانه وصنيعه بيانا لإعجازه وقدرته على الخلق، ففي قوله جلّ شأنه :﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 1، 2]، ذهب ابن عاشور إلى أنّ" الغرض من القسم في هذه السورة هو تأكيد الخبر، والمقسم به من مظاهر بديع التكوين الإلهي الدال على عظيم قدرته وسعة علمه" [23]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ﴾[التين:1،2] حيث ذهب الصابوني إلى أنّ" ابتداء السورة بالقسم بالبقاع المقدسة على أنّ الله تعالى كرم الإنسان فخلقه في أحسن صورة، وأبدع شكل، فإذا لم يشكر نعمة ربه فسيرد إلى أسفل دركات الجحيم، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة ربّ العالمين في خلقه للإنسان في أحسن شكل، وأجمل صورة". [24] " فابتداء السورة بالقسم توكيد على أنّ الله عزّ وجلّ خلق الإنسان في أحسن تقويم" [25]

وقد تبين هذا الغرض -التعظيم- في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها ما جاء في قوله جلّ جلاله:﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[الشمس: 7]، وفي قوله تعالى:﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:23]، فهي إشارات إلى بعض مخلوقات الله سبحانه وتعالى (النفس، السماء، الأرض) التي تنبأ بعظمة هذا الخالق وتوحي إليه.

- **تعظيم شأن المقسم به:** ببيان شرفه وإعلاء منزلته، ففي القرآن الكريم أقسم الله تعالى بحياة النّبي تعظيما لشأنه وتكريما له، ورفعا لمكانته بين خلقه عند خالقه، من ذلك ما جاء في قوله عز وجل:﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الحجر: 72]، فالمخاطب هو سيّد الخلق محمد -صلى الله عليه وسلّم-، فأقسم الخالق جلّ في علاه بحياة المخاطب كناية عن التعظيم، والرفعة في المقام. أما في قوله تعالى:﴿ص. وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[ص: 1]،فقد أقسم الله عزّ وجلّ بالقرآن الكريم تعظيما لشأنه، يذهب مصطفى المراغي في تفسيره إلى أنّ كلمة "الحكيم"

"المقصود بها المحكم بعظيم النظم وبديع المعاني، فمكانة القرآن عالية وراقية وقسم المولى عز وجل ليس كقسم العباد". [26]

- **إثبات صدق الرسول _صلى الله عليه وسلم_**: إنّ الله عز وجلّ كلّف رسوله الكريم بتبليغ رسالة عظيم شأنها، لقوم تباينت مواقفهم بين القبول والرفض، فأرسل محمدا -صلى الله عليه وسلم- إلى خلقه لغرض تثبيت الإيمان في قلوبهم، وهذا ما جعل رسالته تتضمن أدوات التوكيد المختلفة، أهمّها أسلوب القسم، مثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: 3]، حيث عمل القسم مع ذكر الرسول -عليه الصلاة والسلام- على إعلاء شأنه لأنّ في ذلك دليل على صدقه ". [27]

- **الحثّ على التأمل في عظمة الخالق جلّ في علاه**: من خلال آياته الكونية، فقد أقسم الله عز وجل في القرآن الكريم بالمشاهد الطبيعية والآيات الكونية لغرض إثبات جدارة العبادة لخالقها، فخلق النفس والشمس والنجم... وغيرها من المخلوقات العظيمة ليس بأمر ممكن لغير الله، وبالتالي دليل عظمته، " فيكون الغرض منها لفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من أسرار عجيبة، وما فيه من نظام بديع محكم" [28]،ففي قوله جل جلاله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: 5]، دلالة على عظمته تعالى" لأنّها صفات الفعل الإلهية، فجملة (بناها) صلة موصول أصلها:والبناء الذي بني السماء ". [29]

- **تصحيح العقائد الباطلة**: عندما اتخذ الإنسان المظاهر الطبيعية (النجم، الشمس، القمر، ...وغيرها) آلهة يعبدونها من دون الله، بيّن الله عزّ وجلّ أنّها مجرد مخلوقات تدل على عظمة خالقها، ولا يجوز الحلف بها، ففي قوله تعالى﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النحل: 38]، فقد رُبط حلف الكفّار بالله عزّ وجلّ وليس بغيره، رغم كفرهم بيوم الحساب، يقول البيضاوي في تفسير الآية الكريمة " أنكروا البعث كما أنكروا التوحيد فأقسموا على ذلك إيذانا بإنكارهم، وقد ردّ الله عليهم أبلغ رد (بلى وعدا حقا) فـ (وعدا) مصدر مؤكد لنفسه و(حقا) صفة مؤكدة للوعد" [30] .

- **التأثير على النفس ولفت انتباه السامع**: جاءت معظم السور المكية (ست عشرة سورة) بفاتحة القسم، لما له من تأثير على النفس، فالبدء به يعمل على جذب انتباه السامع ليستهدي لما بعده من القول، كما في سورة (النازعات)، (التين)، (العصر)... وغيرها يقول هادي نهر: " إنّ الغرض من القسم الاستعطافي هو تحريك النفس وإثارة شعورها " [31]، كما أنّ القسم ببعض الأمكنة مثل(الطور)، و(البلد الأمين) يلفت الانتباه إلى أهمية المكان والحدث الذي وقع فيه ". [32]

- **تجسيد المعقول في صورة المحسوس**: مما يجعل العقل أكثر استيعابا له و المعنى أكثر رسوخا في الذهن، وثبوتا فية لأنّه يحول الأمور المعقولة إلى أشياء محسوسة يقول الدكتور عطا حسن " ومثله تشبيه الوحي بالضحى في رابعة النهار، وتشبيه الباطل بالليل، وانتصار الحق بالنهار " [33]، ففي قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[الضحى:1 ، 2]، يقول ابن عاشور:" إنّ الضحى وقت انبثاق نور الشمس فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء " [34]، وهو الرأي نفسه الذي ذهب إليه الصابوني حيث يقول" أقسم الله تعالى

بالضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس، وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه، وذلك دليل على قدرته تعالى"[35]. وأيضا في سورة الفجر في قوله تعالى:﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: 1،2،3،4]، فالقسم بهذه الأزمنة دلائل على بديع صنع الله وسعة قدرته، من ذلك وقت الفجر الجامع بين انتهاء ظلمة الليل، وابتداء نور النهار، والمقصود بالقسم التوكيد،"وما يزيد المظهر توكيدا أنها مرئية بالعين، أي قسم لأجل ذي عقل يمنعه من المكابرة "[36]

3: البعد الحجاجي لأسلوب القسم في القرآن الكريم:

المقصود بالحجاج هو الإقناع و البرهان، وإقامة الحجة والدليل، وقد عرّفه طه عبد الرحمان بقوله "حدّ الحجاج أنّه كلّ منطوق موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصومه يحق له الاعتراض عليها "[37]، والهدف منه الوصول إلى إقناع المتلقي والتأثير عليه، لأن المتكلم كثيرا ما يجد نفسه أمام مواقف تستدعي توكيد كلامه خوفا من عدم تقبل الآخر له، فيلجأ إلى أدوات ووسائل تحقق له ذلك، و القسم أقوى الأساليب اللغوية توكيدا وتحقيقا للخبر، وجعله ثابتا في ذهن السامع، لما له من قوة في الجزم والقطع، نظرا لقداسته في نفسه.

لقد شاع أسلوب القسم بين العرب منذ القدم، فكان من أقوى المؤكدات التي اثبتوا بها وصاياهم وخطبهم ومفاخراتهم، لما له من قوة تأثيرية تضع السامع في موقف إصرار على قبول ما يعرض عليه وجعله لا يُرد.

فأسلوب القسم من الوسائل الفعّالة التي تهدف إلى إقامة الحجّة على المخاطبين لما له من قوة تأثيرية تدفع بالسامع إلى حدّ الاقتناع والتصديق، ولقد لخص عبد الحميد الفراهي (توفي 1930ه) العوامل التي تحقق الوظيفة الحجاجية لأسلوب القسم في القرآن الكريم في عدة نقاط هي: "[38]

1- التوكيد وإظهار الجدّ في القول.

2- كون القسم إنشاء فهدا لا يجعله محل الإنكار.

3- كونه موجز العبارة، والغرض منه الاستدلال، فالغرض من إيجاز العبارة هو قوة التأثير على النفس.

4- القسم يعمل على دعوة السامع إلى التأمل واستعمال العقل، والسعي إلى استنباط الدليل.

5- انه دليل قاطع يبعد عن السامع الإنكار والمخاصمة.

6- جعل القسم في مطلع السورة وماله من قوة تأثيرية.

7- البدء بإعطاء الدليل قبل الدعوى، لتجنب الإنكار وإقامة الحجة و الاستدلال.

8- ان أسلوب القسم يعتبر من جوامع الكلم.

وهذا ما يوحي بمدى ارتباط أسلوب القسم بالوظيفة الحجاجية لا سيما النص القرآني، فمثلا في قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾[يوسف: 73] ، حيث تتجلى القوة الحجاجية للقسم في هذه الآية الكريمة من خلال وجود طرفين يسعى أحدهما إلى إقناع الآخر وفعلا هذا ما حدث في نهاية الأمر، إذ تتعلق الحكاية بإخوة يوسف- عليه السلام - الذين أرادوا الدفاع عن أنفسهم، باستعمال أسلوب القسم كحجة لذلك، وما يزيده قوة استعمال حرف (التاء) الذي يختص بالدخول على لفظ

الجلالة (الله) وتأتي بمعنى التعجب " أكدوا ذلك بالقسم لأنّهم كانوا قد فقدوا على مصر مرة سابقة واتهموا بالجوسسة فتبينت براءتهم، أمّا براءتهم من السرقة فما اخبروا به أنّ وجود بضاعتهم في رحالهم وقعت غلطا، أي أنّهم نفوا عن أنفسهم الاتصاف بالسرقة" [39]، وقال "محمد طه" في تفسير الآية الكريمة "إنّ إخوة يوسف اقسموا على أمرين، الأمر الأول: ان مجيئهم ليس لغرض الفساد في الأرض، أما الأمر الثاني أن مجيئهم ليس لغرض السرقة ودليل كونهم غير سارقين وأنّهم ردّوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم، فهذه الصفة لا يتصف بها السارق "[40] ، فكان الغرض من استعمال أسلوب القسم تحقيق الحجة وإثبات الدليل.

فقد وظّف القرآن الكريم أسلوب القسم وسيلة للإقناع، لأنّه يعمل على تحقيق قيمة الكلمة و تثبيتها في ذهن المتلقي لغرض الوصول به إلى درجة الاقتناع واليقين، يقول عبد الله صولة في كتابه "الحجاج في القرآن ": "إنّ القسم يعمل على توجيه الملفوظ وإثباته ما يؤهله لجعله واقعا لا محالة، فالمقسم به يمتلك قوة تأثيرية تجعل الكلام مقبولا لا يمكن أن يرد " [41]، فمثلا في قوله عز وجل :﴿ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[يس:1،2،3]، أقسم الله تعالى بالقرآن الكريم ووصفه بالحكيم لما فيه من إعجاز، وأراد أن يثبت بذلك حقيقة أنّ محمدا رسول الله إلى عباده، فعمل القسم على تأكيد الحجة، والسعي إلى الإقناع من فجعل اليمين يحل محل الحجّة والدليل، يقول الرازي (توفي 313هـ) "إذ شرع في أول كلامه يحلف ليعلم السامع أنّه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغى إليه تمام الإصغاء، ويقبل على سماعه كل الإقبال" [42]، ويذهب ابن عاشور إلى أنّ المراد بالقسم في هذه الآية هو " التعريض بالمشركين الذين كذّبوا بالرسالة، فهو تأنيس للنبي وتعريض بالمشركين فالتأكيد بالنسبة إليه زيادة تقرير، وبالنسبة للمعنى الكنائي لرد إنكارهم" [43] .

للقسم في النص القرآني قوة تأثيرية كبيرة، من شأنها تحقيق التوكيد وإزالة الشك، وهذا ما يبرر كثرته وتنوّعه فيه، إذ أقرّ السيوطي أنّ الغرض والغاية من القسم تحقيق الخبر وتوكيده " [44]، فقد تنوع القسم كثيرا في القرآن الكريم وتعددت أساليبه وتباينت أغراضه، غير أنّ الأصل في استخدامه إقامة الحجة والسعي إلى الإقناع ، وهذا ما أعطاه بعدا حجاجيا في هذا النص، والغاية من ذلك طبيعة النص القرآني الذي يمثل رسالة موجهة من الخالق إلى عباده تجنبا للإنكار وسعيا للإقناع، فعمد الله جلّ شأنه إلى هذا الأسلوب- القسم- كونه موجه حجاجي منذ أقدم العصور.

4: الوظائف التداولية لأسلوب القسم في القرآن الكريم:

إنّ المتمعن في تراثنا اللغوي العربي ليجد أنّ أسلوب القسم فيه ذو ملمح تداولي عميق، والتداولية هي ذلك الفرع اللغوي المهتم بدراسة الفعل الكلامي أثناء الاستعمال، من أجل ربط التعبير التواصلي بسياقات مقامية وخطابية مختلفة تتعلق به، أي يهتم بدراسة اللغة أثناء الاستعمال.

والتداول هو تفاعل بين طرفين المتكلم والسامع، أي المرسل والمستقبل، وما يحيط بهما من عوامل تساعد على تحقيق وإيصال الرسالة على أتمّ وجه، لذلك هناك من أطلق عليه اسم" الذرائعية أو النفعية أو السياقية"[45]،يسعى إلى دراسة الكلام أثناء الممارسة، وتحقيق الوظيفة التواصلية بربط اللغة مع ما يحيط بالخطاب.

ولا يختلف مبدأ التداولية عن مبدأ البلاغة العربية والتي تهتم باستعمال أدوات لغوية تعمل على تحقيق التأثير على المتلقي في سياقات مرتبطة بمقام الخطاب وحال المتكلم والسامع، فكلاهما تهتم بالخطاب أثناء عملية التواصل.

والقرآن الكريم جاء بلسان عربي مبين، يتضمن المبادئ التي تنظم العلاقات والشرائع والأحكام، فاهتم بضرورة انتقاء الكلمة واللفظ ودورهما في تحقيق إغراض كثيرة تهدي إلى الرشد، وتغفر الذنوب، وتحقق الفوز العظيم عند الله عزّ وجلّ، مصداقا لقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:70-71)، فجاءت أساليبه دقيقة المعاني ملائمة للغرض المقصود، وهذا ليس بغريب في كلام الله المعجز، ويمثل القسم أكثر الأساليب ورودا في النص القرآني، بل كثيرا ما يرد في فواتح السور القرآنية، إذ حفل القرآن الكريم به وبكلّ أنواعه، والقسم من أكثر الظواهر اللغوية تداولا بين الناس، فقد عُرف عند العرب واستعمل في كلامهم استعملا واسعا، لأنّ الإنسان في حياته اليومية وتعاملاته الاجتماعية مع الآخر كثيرا ما يجد نفسه أمام مواقف تستدعي جعل كلامه أكثر حجة وإثباتا، وأسلوب القسم الموجز العبارة أكثر الأساليب إفادة لهذا الغرض.

ولأسلوب القسم بعد تداولي، فقد أشار إليه اللغويون منذ القدم في دراساتهم، فتطرقوا إلى كل العناصر التي تمثل ركائز المنهج التداولي الحديث، سواءً أكان الأمر يتعلق بالمتكلم أم السامع أم المقام، وأيضا في كونه فعل كلامي انجازي تأثيري، إلى جانب ما يتعلق بالحجاج والإقناع و القصدية، وغيرها من المكونات التداولية، ويتضح البعد التداولي لأسلوب القسم في عناصر الفعل الكلامي على النحو الآتي:

5-1- المتكلم: إنّ استعمال المتكلم لأسلوب القسم دلالة مباشرة عن رغبته في توكيد خبره وإقراره وإيصاله إلى الآخر بصفة مثبتة تصل به إلى درجة الإقناع دون أي مجال للشك، لأنّ أسلوب القسم يعبر تعبيرا واضحا عن موقف المتكلم في قضية معينة يسعى إلى تأكيد مضمونها وإقرارها عند السامع، وهذا اعتقادا ويقيننا منه أنّ هذا الأسلوب- القسم - أبلغ وأقوى الأساليب حملا للمتلقي على التصديق، فيتحقق الفعل الإنجازي.

والقرآن الكريم عمد إلى أسلوب القسم سعيا إلى تحقيق التأثير على السامع وجعل الكلام أكثر تأكيدا والمعاني أكثر ثبوتا على نحو يحيل إلى إبعاد صفة الإنكار والجحود عنده، فمثلا في قوله عز وجل: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[الأنبياء: 57]، يوحي القسم في هذه الآية الكريمة بالإصرار الكبير الذي بداخل نفس إبراهيم، يقول ابن عاشور " انتقل إبراهيم عليه السلام من تغيير المنكر بالقول إلى تغييره باليد معلنا عزمه على ذلك، مؤكدا عزمه بالقسم" [46] .

فبعد أسلوب القسم من أكثر الأساليب تعبيرا عن رغبة المتكلم في تقوية كلامه وإثباته، فلا يلجأ إليه إلّا إذا أراد تأكيد وتقرير خطابه الذي يلقيه على السامع، قصد إزالة وتجنب أي احتمال للشك الذي قد يراوده، وحمله على تصديق الخبر، ولهذا فقد كثر استعماله في الخطابات العادية، والقرآن الكريم بصفة خاصة حيث يتعلق الأمر بالمتكلم الذي هو الخالق عزّ وجلّ، فأراد توكيد كلامه وأحكامه وشرائعه إيصالها إلى عبده والتأثير فيه بالتصديق،

رأفة منه عليه ليكون من عباده الفائزين عنده، وفي هذا كفاءة تواصلية عظيمة، تحققت بحسن استعمال الأدوات اللغوية الكفيلة بإنجاح الخطاب، وتحقيق الدقة في التعبير، فمثلا في قوله جل جلاله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[النساء: 65]يقول الشوكاني في تفسير الآية الكريمة " في هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود وترجف له الأفئدة، فأقسم سبحانه مؤكدا لهذا القسم بحرف النفي (لا) بأنّهم لا يؤمنون حتى يحتكموا إلى النبي وأيضا لابدّ أن يكون ذلك من صميم القلب، وبعدها لابدّ لهم من التسليم والانقياد ظاهرا وباطنا "[47].

كما ارتبط القسم في القرآن الكريم بغير الله من المتكلمين منهم الأنبياء وغيرهم من عباد الله المؤمنين منهم و الكافرين، فمثلا في قوله عز وجل:﴿ تالله إنّ كنّا لفي ضلال مبين﴾ (الشعراء:97) " فالذين كانوا يعبدون الأصنام يعجبون من ظلالهم إذ ناطوا آمالهم المعونة والتنصر بحجارة لا تغني عنهم شيئا، وأكدوا ذلك بوصفهم الضلال بالمبين وهذا تسفيها منهم لأنفسهم".[48].

2-5- السامع: إنّ الهدف من استعمال أسلوب القسم هو تمكين الخبر عند السامع، وتوكيده وإقراره في ذهنه ودفعه نحو التصديق، فتتحقق القوة الإنجازية لفعل القسم الذي يمثل أهمّ المؤكدات التي تثبت الشيء في النفس، وهذا ما يدل على أنّ هذا الأسلوب من أهمّ آليات الحجاج والإقناع عند السامع، يقول الدكتور عطا حسن "إنّ أسلوب القسم يمتاز بإيجازه ولهذا يهجم على السامع فيمتلكه، ولعل العرب أكثروا منه لوجازته"[49]. إذ يأتي القسم في الآيات القرآنية كتمهيد لغرض تنبيه السامع، فيلفت انتباهه إلى ما بعد القسم، فمثلا في قوله تعالى: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[ص:1،2]، ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن الذي كذّب به المشركون، مع ما في الافتتاح بالقسم من التشويق إلى ما بعده، فكانت فاتحتها مستكملة خصائص حسن الابتداء"[50]. يقول الصابوني:" قسم أقسم به الباري جلّ وعلا أي والقرآن ذي الشرف الرفيع وذي الشأن والمكانة، وجواب القسم محذوف تقديره: إنّ هذا القرآن لمعجز وإنّ محمدا لصادق"[51].

يذهب أحمد بدوي إلى"أنّ القسم له تأثير دائم على السامع، لابدّ منه، فإذا لم يكن هذا التأثير بالتصديق، فإنّه يحمل المخاطب على التأمل في الفكرة المخالفة والشك فيها، فالقسم يبعث المرء على التفكير الجاد والقوي، فيما ورد القسم من أجله "[52].

يعمل أسلوب القسم على تحقيق قوة إنجازيه تتمثل في القدرة على التبليغ والتأثير في السامع أثناء العملية التواصلية، ويعود مصدر هذه القوة إلى عاملين: الأول ارتباط أسلوب القسم بالعقائد الدينية، وهذا ما يجعله مقدسا عند المتكلم والسامع، والثاني متعلق بالجانب الاجتماعي، حيث يجد الإنسان نفسه أمام منظومة اجتماعية كثيرة التعامل مع الغير، ولهذا يستعمله كحجة وبرهان على صحة ما يسعى إليه، وما ينقل من أخبار، والقرآن الكريم ليس ببعيد عن هذا التنظيم، إذ الهدف الأمثل منه تنظيم الحياة الإنسانية ، ورسم الطريق الأمثل لها،فجاء أسلوب القسم كثير الورود فيه متعلق بأغراض متنوعة، الهدف منه جعل السامع يصل إلى درجة الاقتناع، فمثلا في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[آل عمران: 158]، في الآية الكريمة"

ترغيب وترهيب، فجعل الموت في سبيل الله و الموت في غير سبيل الله وسيلة للحشر والحساب، ليعلم كلّ واحد بماذا يلاقي ربّه وإلام موطئه للقسم أي مؤذنة بأن قبلها قسما مقدرا" [53] ، وفي ذلك تأثير بالغ على السامع، وضمان وصول الرسالة إليه على نحو ما يسعى إليه المتكلم.

5-3- المقام: يرتبط أسلوب القسم بمقام الخطاب و سياقه ارتباطا وثيقا، بل أنّ هذا السياق هو الذي يملي استعماله ويفرضه في غالب الأحيان، ويحدد نوع المقسم به، فمثلا في قوله تعالى :﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[الشعراء: 44] أي"فألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصيّ وقالوا عند الإلقاء: نقسم بعظمة فرعون وسلطانه إنّا نحن الغالبون لموسى" [54] ، حيث حلف السحرة بعزة فرعون دلالة على مكانته عندهم، فاستعانوا به لتحقيق وتوكيد القسم، فاسندوا له تلك الصفات في حين أنّ العزة لله جل جلاله" [55] .

كثير ما يلجأ المتكلم إلى استعمال أسلوب القسم في المقام و الوقت الذي يراه مناسبا لتحقيق غاية تواصلية معينة والسعي إلى تأكيد الكلام وتقريره، وفي القرآن الكريم جاء أسلوب القسم ملائما للسياقات التي ورد فيها، فمثلا في قوله تعالى:﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: 53]، يقول ابن عاشور في تفسير الآية الكريمة " حكاية فنّ من أفانين تكذيبهم، فمرة يتظاهرون باستبطاء الوعد استخفافا به، ومرة يُقبلون على الرسول في صورة المستفهم الطالب فيسألونه أهذا العذاب الخالد حق" [56] ، فكان القسم ملائما لحالهم قصد تأكيد حقيقة عذاب الخلد، وفي قوله تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[التوبة: 56] تتضح الدلالة السياقية لهذه الآية الكريمة في كون المنافقين يحلفون بالله كذبا وافتراءً ورغبة منهم في إرضاء المؤمنين، يقول ابن عاشور " لما كان المخاطبون مؤمنون كان التبعيض على اعتبار اتصافهم بالإيمان، وذلك جليّ في قرينة القسم لأنّهم أوهموا المسلمين أنهم مثلهم " [57] .

إنّ ارتباط أسلوب القسم في القرآن الكريم بالسياق والمقام يتجلّى من خلال مراعاته لما ساد عند العرب من أفكار وأساليب يسيرون وفقها، ويظهر ذلك مثلا في قوله تعالى:﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وما غوىٰ﴾[النجم: 1،2] يذهب المفسرون إلى أنّ القسم في هذه الآية الكريمة بالنجم إنّما يعود إلى وظيفة (النجم) عند العرب التي هي الهداية، ومن يتبعه لا يضل السبيل، إذ يهتدي به السائرون لذلك أسقطه على الرسول الكريم، لأنّه ما جاء به هداية لا ضلالة فيه، أما في قوله جلّ وعلا: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فالموريِاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾(العاديات: 2،3) فالمقصود بالعاديات التي أقسم الله بها، "الخيل لأنّها تتصف بالسير السريع، فهي الخيل حين تغزوا في سبيل الله " [58] ، وتعتبر الخيل أعز شيء عند العرب، لأنّ حياتهم قائمة على القتال والنضال، فأكثروا في وصفها في أشعارهم، وجاء القرآن الكريم يجاري كلامهم.

يذهب أحمد المتوكل في ارتباط القسم بالمقام إلى أنّ التراكيب المؤكدة بالقسم تجعل من الألفاظ ذات آفاق دلالية تداولية واسعة لا تقف عند حدود التعبير، بل تتعداه ليصل المتكلم إلى أعلى درجات التأكيد، وهو ما يجعل من الملفوظ يحقق دوره في الإقناع والتوجيه، ويرى المتوكل " أنّ ذلك يكون وفقا لحال المتلقي ودرجة إنكاره، حيث قسم المتلقي إلى طبقتين هما: الطبقة المقامية الأولى وهي الجاهلة بالخبر ويكون الهدف من القسم

هو توجيه القول والسعي إلى تحقيق الاستحسان والقبول، أما الطبقة الثانية فهي العارفة بالمعلومة ويكون الغرض من القسم بمثابة الحجة لتأكيدها وتجنب الإنكار لها " [59]، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[الأنعام: 30]، فقسم الكافرون استدعاه مقام وقوفهم بين يدي الله بعدما سألهم:" أليس هذا البعث والنشر بعد الممات الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقا؟ فقالوا بلى والله إنّه لحق، ثم قال لهم الله عزّ وجلّ: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون". [60] .

وأكثر ما يدل على ارتباط أسلوب القسم في القرآن الكريم بالمقام حذف بعض أركانه لوجود قرينة سياقية دالة على الطرف المحذوف، يقول في ذلك ابن جني" قد حذف العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته، فنحو قولهم في القسم: والله لا فعلت، وتالله لقد فعلت، وأصله أقسم بالله، فحذف الفعل والفاعل " [61] وقد بيّن القرطبي أنّ النص القرآني فيه الكثير من الحذف و الإيجاز لدلالة المقام والسياق على المحذوفات يقول " المحذوفات كثيرة جدا في كتاب الله تعالى لعلم ومعرفة المخاطبين بها " [62]، ففي قوله تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: 1،2،3] حذف جواب القسم (لتبعثنّ) واستدل الزمخشري على حذفه بقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾" [63]، وهو ما ذهب إليه ابن القيم إذ يرى أن حذف جواب القسم جائز لدلالة السياق عليه، وللعلم به كأن الله عزّوجلّ يقول " أذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسما بهما لكونهما من آياتنا وأدلة ربوبيتنا ". [64]

خاتمة :

تبين لنا في نهاية هذا البحث حول أسلوب القسم وأثره الدلالي في القرآن الكريم، مايلي:

- أسلوب القسم من أهمّ الأساليب اللغوية المعتمدة في القرآن الكريم وأكثرها حضورا فيه، بل هو وجه من أوجه الإعجاز اللغوي فيه.

- الغرض من استعمال القسم في القرآن الكريم هو تقديس الخالق وإجلال عظمته، حيث تنوع فيه بين الظاهر والمضمر وبين التقديسي والتشريفي والاستدلالي، كما جاء فيه معمما، إذ أقسم الله عز وجل بجميع المخلوقات ما نبصره وما لا نبصره وفي ذلك دلالة على عظمة الخالق من خلال خلقه.

- تنوع أغراض القسم في القرآن الكريم بين التعظيم والتنبيه والتجسيد ...وغيرها، إلا أنّ الغرض الأساس منه هو التوكيد، فهو من أكثر الوسائل الحجاجية اعتمادا فيه لغرض الوصول إلى تحقيق الإقناع، لما يحوز عليه من قوة تأثيرية بالغة وطاقة حجاجية كبرى، إذ تبين لنا من خلال البحث أصالة أسلوب القسم وأبعاده الحجاجية في التراث اللغوي العربي والذي كان منطلق الدراسات فيه ومحورها القرآن الكريم.

- اعتماد القرآن الكريم لأسلوب القسم جاء محاكاة للعرب في كلامهم، إذ كان توظيفه عندهم كثيرا لغرض توكيد الخبر وتقريره وهذا ما يوحي بالبعد التداولي لهذا الأسلوب - القسم-، إذ يرتبط استعماله بعناصر الخطاب الثلاثة

المتمثلة في المتكلم والسامع والمقام، وأنّها المتحكمة في توظيفه وإيراده في الكلام، وهذا ما تجسد واضحا في القرآن الكريم، اذ ارتبط اعتماده فيه بهذه العناصر وكانت المساهم الأكبر في ايراده.

هوامش:

[1] السيوطي، عبد الرحمن بن كمال جلال الدين،(1974م)، الإتقان في علوم القرآن، تح:محمد أبو الفضل إبراهيم، ج4، دط، مصر- الهيئة المصرية العامة للكتابة،ص 51.

[2] ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد، تح: عبد الله علي الكبير بن محمد وهاشم الشاذلي، لسان العرب، د ط، القاهرة ، مادة (ق س م)، ص 3036.

[3] ابن منظور ،لسان العرب،مرجع سابق ، ص 3661 .

[4] الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر،(1326ه)، مختار الصحاح، ط1، مصر- المطبعة الكلية، ص 557.

[5] ابن سيّده، علي بن اسماعيل،(1965م) ، المخصص، تح: عبد السلام هارون، بيروت- المكتب التجاري للطباعة والنشر، ص110.

[6] ابن يعيش، موفق الدين بن علي النحوي،(دت)، شرح المفصل، ج9، ط1، بيروت- عالم الكتب، ص 76.

[7] الطبري، أبو جعفر بن جرير الطبري، (2000م)، تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن الحسن التركي، ط1، بغداد- مركز البحوث الدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، ص489.

[8] صبحي عمر،(2099م)، أسلوب الشرط والقسم من خلال القرآن الكريم، ط1، الأردن- دار الفكر. ، 2009م، ص76.

[9] سامي عطا حسن،(د ت) أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه، دط، مجلة مدونة البلاغة العربية جامعة آل البيت- المملكة العربية الهاشمية الأردنية. ص24، 25.

[10] السيوطي، عبد الرحمن في الكمال جلال الدين،(1988م)، معترك القرآن في إعجاز القرآن، تح: محمد علي البجاوي، ط1، بيروت- دار الكتب العلمية. ص372.

[11] سيبويه، عمرو بن عثمان،(1992م)، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، ط4، القاهرة- مكتبة الخانجي مطبعة المدني، ص496

[12] الزمخشري، جار الله محمود، (1977م)، الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل، ج3، دط، دمشق- دار الفكر. ص576.

[13] ابن سيده، المخصص، مرجع سابق، ص 110، 118.

[14] محمد علي الصابوني،(1997م) صفوة التفاسير، ج2، ط1، القاهرة- دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ص128.

[15] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 72.

[16] الرازي فخر الدين، (1420ه)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ط3، بيروت - دار إحياء التراث العربي، ص 193، 196.

[17] سيبويه ، الكتاب،مرجع سابق، ص140.

[18] الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، علق عليه مصطفى عبد القادر عطا،(2004م)، البرهان في علوم القرآن، دط، بيروت - دار الكتب العلمية . ص 389.

[19] ابن عاشور محمد الطاهر،(1984م)، تفسير التحرير والتنوير،(كتاب كامل)، تونس- الدار التونسية للنشر ، ج11، ص195.

[20] ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير،مرجع سابق ،ج14، ص 87.

[21] عبد الجليل عبد الرحيم، (1981م)، لغة القرآن، ط1، عمّان- مكتبة الرسالة الحديثة، ص267.

[22] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص 50.

[23] ابن عاشور، المرجع السابق، ج30، ص528.

[24] الصابوني،صفوة التفاسير، ج 3، ص557.

[25] ابن عاشور، المرجع السابق، ج30، ص 402.

[26] المراغي أحمد مصطفى،(1946م)، تفسير المراغي، ج 22، ط1، مصر- مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ص145.

[27] المراغي،المرجع السابق، ص267.

[28] عبد الجليل، لغة القرآن الكريم، ص 267.

[29] ابن عاشور، المرجع السابق، ج30،ص366.

[30] البيضاوي، القاضي ناصر الدين أبي سعد،(2000م)تح:محمد صبحي ومحمد أحمد الأطرش، ج14،أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت،لبنان- دار الرشيد، مؤسسة الإيمان،ص 261.

[31] هادي نهر،(1987م)، التراكيب اللغوية في العربية، دراسة وصفية تطبيقية، ط1، بغداد- مطبعة الإرشاد ،ص238.

[32] سمير عبد العزيز شيلوة، (دت)، الكشف والبيان في علوم القرآن، دط، مصر- مطبعة دار البيان،ص 285.

[33] سامي عطا حسن ،المرجع السابق ، ص 33

[34] ابن عاشور، المرجع السابق،ج30، ص394.

[35] الصابوني،المرجع السابق،ج 3،ص553.

[36] ابن عاشور، المرجع السابق،ج30، ص312.

[37] طه عبد الرحمن،(1998م)، اللسان و الميزان أو التكوير العقلي، ط1، الدار البيضاء- المركز الثقافي الغربي ،ص 226.

[38] حسين النصار،(2001م)، القسم في القرآن الكريم، ط1، بور سعيد، مصر - مكتبة الثقافة الدينية، ص115.

[39] ابن عاشور، المرجع السابق،ج13، ص47.

[40] محمد علي طه الدرة،(2009م)، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه، مج:4، ط1، دمشق- دار ابن كثير. ، ص631.

[41] صولة عبد الله، (2007م)، الحجاج في القرآن الكريم،ط1، بيروت، لبنان- دار الفرابي. ص322.

[42] الرازي، المرجع السابق، ص 194.

[43] ابن عاشور، المرجع السابق،ج 22، ص 345.

[44] السيوطي، المرجع السابق، ص42.

[45] خليفة بوجادي،(2009م)، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط2، الجزائر- بيت الحكمة للنشر و التوزيع. ص146.

[46] ابن عاشور، المرجع السابق،ج17، ص 92.

[47] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد،(1962م)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط2، مصر- مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده. ص 169، 170.

[48] ابن عاشور،المرجع السابق،ج 19ص153.

[49] سامي عطا حسن،المرجع السابق،ص42.

[50] ابن عاشور،المرجع السابق،ج23،ص143

[51] الصابوني،المرجع السابق،ج3 ،ص49.

[52] بدوي أحمد أحمد، (1950م)، من بلاغة القرآن، ط3، مصر- مطبعة نهضة. ص170.

[53] ابن عاشور ، المرجع السابق،ج23 ص 143.

[54] الصابوني،المرجع السابق،ج 2،ص363.

[55] ابن عاشور ، المرجع السابق،ج19،ص153.

[56] ابن عاشور ، المرجع السابق، ج11،ص 196.

[57] ابن عاشور ، المرجع السابق، ج 11،ص 230.

[58] ابن عاشور ، المرجع السابق،ج30، ص 498.

[59] أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية في اللسانيات، دار البيضاء، ط1، دار الثقافة، 1985م، ص 28.

[60] الطبري، المرجع السابق، ص316.

[61] ابن جني أبو الفتح عثمان،(1952) الخصائص، تح: محمد علي النجار، القاهرة، ج3،ط3، المكتبة العلمية القاهرة، ص 360.

[62] ابن مضاء أحمد عبد الرحمن اللحمي القرطبي ، 1947م، الرد على النحاة، ط1، تح: شوقي ضيف، دار الفكر العرب، ص 89.

[63] الزمخشري، المرجع السابق، ص 190.

[64] ابن القيم شمس الدين محمد الدين بن محمد أبي بكر الجوزية،(دت) التبيان في أقسام القرآن، تح: محمد حامد الفقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ص 92.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن القيم شمس الدين محمد الدين بن محمد أبي بكر الجوزية، (دت)، التبيان في أقسام القرآن، تح: محمد حامد الفقي، دط، بيروت- مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.
2. ابن جني أبو الفتح عثمان،(1952م)، الخصائص ، تح: محمد علي النجار، ج3، ط2، القاهرة- المكتبة العلمية.
3. ابن سيّده،(1965)، المخصّص، ط1، بيروت- المكتب التجاري للطباعة والنشر.
4. ابن عاشور محمد الطاهر،(1984م)، تفسير التحرير والتنوير،(كتاب كامل)، ج11، تونس- الدار التونسية للنشر.
5. ابن مضاء أحمد عبد الرحمن اللحمي القرطبي،(1947م)، الرد على النحاة، تح: شوقي ضيف، ط1، القاهرة- دار الفكر العرب.

6. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد، (1980م)، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير بن محمد وهاشم الشاذلي، دط، القاهرة- دار المعارف.
7. ابن يعيش، موفق الدين بن علي النحوي،(دت)، شرح المفصل، ج9، ط1، بيروت- عالم الكتب.
8. أحمد المتوكل، (1985م)، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط1، دار البيضاء، المغرب- دار الثقافة.
9. بدوي أحمد أحمد، (1950م)، من بلاغة القرآن، ط3، مصر- مطبعة نهضة.
10. البيضاوي،القاضي ناصر الدين أبي سعد،(2000م)تح:محمد صبحي ومحمد أحمد الأطرش،أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت،لبنان- دار الرشيد، مؤسسة الإيمان.
11. حسين النصار،(2001م)، القسم في القرآن الكريم، ط1، بور سعيد، مصر - مكتبة الثقافة الدينية.
12. خليفة بوجادي،(2009م)، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط2، الجزائر- بيت الحكمة للنشر و التوزيع.
13. الرازي فخر الدين، (1420ه)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ط3، بيروت- دار إحياء التراث العربي.
14. الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر،(1326ه)، مختار الصحاح، ط1، مصر- المطبعة الكلية.
15. الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، علق عليه مصطفى عبد القادر عطا،(2004م)، البرهان في علوم القرآن، دط، بيروت- دار الكتب العلمية .
16. الزمخشري، جار الله محمود،(1977م)، الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل، ج3، دط، دمشق- دار الفكر.
17. سامي عطا حسن،(د ت) أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه، دط، مجلة مدونة البلاغة العربية جامعة آل البيت- المملكة العربية الهاشمية الأردنية.
18. سمير عبد العزيز شيلوة، (دت)، الكشف والبيان في علوم القرآن،دط، مصر- مطبعة دار البيان.
19. سيبويه، عمرو بن عثمان،(1992م)، الكتاب، تح: عبد السلام هارون ، ط4، القاهرة- مكتبة الخانجي مطبعة المدني.
20. السيوطي، عبد الرحمن بن كمال جلال الدين،(1974م)، الإتقان في علوم القرآن، ج4، دط، مصر- الهيئة المصرية العامة للكتابة.
21. السيوطي، عبد الرحمن في الكمال جلال الدين،(1988م)، معترك القرآن في إعجاز القرآن، تح: محمد علي البجاوي، ط1، بيروت- دار الكتب العلمية.
22. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد،(1962م)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط2، مصر- مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده.
23. صبحي عمر،(2099م)، أسلوب الشرط والقسم من خلال القرآن الكريم، ط1، الأردن- دار الفكر.
24. صولة عبد الله، (2007م)، الحجاج في القرآن الكريم،ط1، بيروت، لبنان- دار الفرابي.
25. الطبري، أبو جعفر بن جرير الطبري، (2000م)، تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن الحسن التركي، ط1، بغداد- مركز البحوث الدراسات العربية والإسلامية بدار هجر.
26. طه عبد الرحمن،(1998م)، اللسان و الميزان أو التكوير العقلي، ط1، الدار البيضاء- المركز الثقافي الغربي.
27. عبد الجليل عبد الرحيم، (1981م)، لغة القرآن، ط1، عمّان- مكتبة الرسالة الحديثة.

28. محمد علي الصابوني،(1997م) صفوة التفاسير، ط1، القاهرة- دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع.
29. محمد علي طه الدرة،(2009م)، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه، مج:4، ط1، دمشق- دار ابن كثير.
30. المراغي أحمد مصطفى،(1946م)، تفسير المراغي، ج 22، ط1، مصر- مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
31. هادي نهر،(1987م)، التراكيب اللغوية في العربية، دراسة وصفية تطبيقية، ط1، بغداد- مطبعة الإرشاد.